

٢ - التمثل في الأدب العربي

وحظ شعر المتنبي منه *

لهُ سنان على النجدي ناصف

لم يكن الإقبال على شعر المتنبي ، والإلحاح في كسب مودته على الصورة التي رأينا — من قلة الشعراء لعمده ، أو من نضوب قرائحهم ، أو غثاثة نتاجهم . كلا ؛ فإنهم يومئذ لكثير ، وإن منهم لفريقا مقدما ، يمد من الشعراء المحيدين ؛ خصب قريحة . وسراوة نتاج . ولكن سوء الحظ رماهم بالمتنبي ، وجمع بينهم وبينه في عصر واحد ، فأحملهم ، وشغل الناس عنهم ، كأن لم يكن معه أحد . وكأنه كان يغنيهم جميعا بقوله :

وما كد الحساد شيئا قصده ولكنه من يزحم البحر يفرق
نعم ، فنحن إذ نرجع إلى القرن الرابع الهجري ، نريد أن نتعرف المشهورين من شعرائه . يتصدى لنا أبو الطيب في المقدمة أظهرهم مكانا ، وأفرعهم عودا . وأجهرهم صوتا ، ونرى المعري في أثره : يتلوه كما يتلو اللاحق سابقه ، أو الثاني أوله ، ثم نرى الرضي وأبا فراس ، ولكن على مبعدة منهما . ونرى بعد ذلك بقية الحشد جملة واحدة ، كأن ليس بينهم تفاوت في المنزلة ، أو خلاف في المزية ؛ لأن شهرة المتنبي طغت عليهم ، فإذا هم جميعا خاملون أو كالحاملين ، وإذا الخصائص التي يمتازون بها لأحسابها ولا نظر إليها . ومن يدري لعل الرضي وأبا فراس لم يظفرا وحدهما بهذا القسط من حفاوة الأدب والأدباء .

(*) نشر الشطر الأول من هذا الحديث في العدد الأول من السيرة السابعة .

إلا للحسب العريق الذى ينتميان إليه ، فليس كلاهما على ما يبدو أرفع فنا ، وأربع مزية من شعراء عصرهما جميعا .

والعجيب أن يبقى حظ هؤلاء الشعراء من الشهرة وإقبال الأدب كما تركه المتنبي . ورضى به القدماء بلا تغيير ، فنحن إنما ندرس منهم حين ندرس — الرضى أو أبا فراس ، ولانكاد نتحدث عن الآخرين إلا يسيرا ، وفى قلة نادرة . وهكذا جنى المتنبي عليهم جنايته ، وسكت عنها القدماء ، وأخذنا نحن إخذهم حياها ، فإذا المتنبي يحمد بما جنى ، وإذا الناس أجدر أن يلاموا على ما لم ينجوا .

وإذا تركنا القرن الرابع جانبا ، ومضينا نتنقل فى القرون من بعده قرنا فقرنا — لانكاد نعثر على كتاب فى الأدب أو فى أى علم آخر يتصل به من قريب أو من بعيد إلا ذكر المتنبي أو تحدث عنه على نوع من أنواع الذكر أو الحديث . وهذا ديرانه قد أربت شروحه فى العصور الماضية على الأربعين ، وظهر له فى زماننا شرحان ، ووضع عن صاحبه أربعة كتب خاصة ، ونشرت عنه مقالات وبحوث ، وألقيت محاضرات لانكاد تحصى كثرة . ولا يزال مجال الدرس والبحث يتسع لمن يريد .

وإذا لم يكن من الميسور لنا أن نصف أثر شعر المتنبي ومدى شيوع روايته فى جميع العصور ، فإن من الميسور لنا ولأريب أن نصف ذلك فى عصره ، ولو وصفا مقاربا . وهو عمل ذو شأن ، يستحق العرض والاعتبار ؛ لأنه يكشف عن ناحية مهمة من نواحي العبقرية الفنية ، التى رزقها هذا الشاعر الفذ ، بل يكشف عن مثال فريد من أمثلة السيطرة الأدبية ، التى فرضها فضا على الأدب فى عصره ؛ فوضع لها الناس ، وظلوا خاضعين لها بعد حياته دهرًا غير قصير . فكانوا بالرغم من لدد الخصومة عند فريق ، وشأن الحسد عند فريق آخر — يرون فى شعره المثل الأعلى ، الذى ينبغي أن تطال إليه أعناق الأدباء ، وتشخذ

عزائمهم للاخذ منه بوأفى نصيب ؛ فيكون لهم منه مادة دائمة ، يقبسون منها لتناجهم الأدبي ماشاء الله أن يقبسوا : من الحكم البارة ، والمعاني المستطرفة ، والآراء المسددة ، والبيان العبقري الرفيع ، فإذا له من كل أولئك أو من بعضه قوة وجمال يغليان قيمته ، ويرفعان مكانته ؛ لهذا أكبوا على رواية شعره ، وإطالة النظر فيه ، والتعمق في درسه ، والإحاطة بأسراره ودقائقه ، على نحو ليس له نظير في شعر شاعر آخر . حتى لقد رويت عن بعضهم طرائف عجيبة من التلميح به ، تدل على أن القوم أو فريقا كبيراً منهم على الأقل — قد استطاع من طول ملازمته إياه ، وشدة انقطاعه له . أن يصطنع منه في بعض المواقف أداة للتخاطب ، لا يشق على المتكلم أن يعبر بها ، ولا على السامع أن يفهم منها . وربما وقع هذا وذاك على البديهة والفور ، فإذا لكليهما شأن عجيب من الألمعية وبراعة الخاطر ، فوق ماله من شأن في الرواية الشاملة ، والتوفيق في الاستدلال . وهؤلاء أساطين البيان لعده وماوليه إلى وقت ليس بالقصير — كانوا في آثارهم الأدبية من النثر والشعر ، يقبسون من شعره على صور شتى ، ما وسعهم الاقتباس ، وأسعدهم التوفيق ، لا يرون في هذا حرجاً ولا بأساً . وهذه أمثلة لمقتبساتهم من شعره .

قال صاحب بن عباد يصف قلعة : « فلما أتاح الله للدنيا ابن بجدتها ، وأبا سهلها ونجدتها ، جهلوا ما بين البحور والأنهار ، فظنوا الأقدار تأتيهم على مقدار ، فما لبثوا أن رأوا معقلهم الحمين ، ومثراهم القديم — نهزة الحوادث ، وفرصة البرائق ، ومجر العوالى ، ومجرى السرايق . فقد ألم هنا بألفاظ بيتين لأبي الطيب ، أحدهما :

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فشكا إليه السهل والجبل
والآخر قوله :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ، ومجرى السوابق

وقال الصابي في تقرّيط شاب : «ولقد آتاه الله في اقتبال العمر جوامع
الفضل ، وسوغه في عنفوان الشباب محامد الاستكمال ؛ فلا تجد الكهولة خلة
تتلافها بتطاول المدة ، وثلة تسدها بمزاياها الحسنة ، وإنما هو حل ما نظم
أبو الطيب ، إذ يقول في معنى آخر :

لا تجد الخمر في مكارمه إذا انتثى — خلة تلافها

وقال أبو العباس الضبي : «وقد أتاني كتاب شيخ الدولتين ، فكان في الحسن
روضة حزن ، بل جنة عدن ، وفي شرح النفس وبسط الانس — برد الأكباد
والقلوب ، وقيص يوسف في أجفان يعقوب ، وهو من بيت أبي الطيب :
كأن كل سؤال في مسامعه قيص يوسف في أجفان يعقوب
وقال الخوارزمي : «ولقد تساوت الألسن حتى حسد الأبكم ، وأفسد الشعر
حتى أحمد الصمم . وهو من قول أبي الطيب :

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول ، حتى أحمد الصمم

وقال ابن زيدون في رسالته الجدية : «وعضضت عنى طرف حمايتك ، بعد
أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك » وهو من قول
أبي الطيب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلمائى من به صمم

وقد أخذ ابن زيدون لهذه الرسالة من شعر المتنبي في ستة مواضع ، وأخذ
منه للرسالة الهزلية في سبعة . وكلا المقدارين يقارب جملة ما أخذ لكتا الرسالتين
من أشعار الشعراء الآخرين .

وقال البيهقي :

«أوليس من إحدى العجائب أنى فارقت ، وحيث بعد فراقه

يا من يحاكي البدر عند تمامه ارحم قى يحكيه عند محاقه»

وهو من قول أبي الطيب :

وقد أخذ التمام البدر فيهم وأعطانا من السقم المحاقا
وقال المهلبى :

تصارمت الأجفان منذ صرمتى فما تلتقى إلا على عبدة تجرى
وهو من قول المتنبي :
قد علم البين منا البين أجفانا تدمى ، وألف فى ذا القلب أحزانا
وقال الصاحب :

لبسن بزود الوشى لالتجمل ولكن لصون الحسن بين بزود
وهو من قول المتنبي :

لبسن الوشى لامتجملات ولكن كى يصن به الجمالا
وقال السرى :

وخرق طال فيه السير حتى حسباه يسير مع الركاب
وهو من قول المتنبي :

يخدن بنا فى جوزة ، وكأننا على كرة ، أو أرضه معنا سفر
وقال الخوارزمى :

قد ظلمناك بحسن الظا ن ، يابعض الأنام
وهو من قول المتنبي :

وصرت أشك فىمن أصطفيه لعلى أنه بعض الأنام
وقال البستى :

أبوك حوى العليا ، وأنت مبرز عليه ، إذا نازعته قصب المجد
وللخمر معنى ليس فى الكرم مثله وفى النار نور ليس يوجد فى الزند
وهو من قول المتنبي :

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن فى الخمر معنى ليس فى العنب

وقال السلامي :

وبشرت آمالي بملك هو الوري ودار هي الدنيا ، ويوم هو الدهر

وهي من قول المتنبي :

هي الغرض الأقصى ، ورؤيتك المنى ، ومنزلك الدنيا ، وأنت الخلاق

ويروى أن ابن العميد لما ماتت أخته ، ورد عليه نيف وستون كتابا في

التعزية ، مامنها إلا وقد صدر بقول المتنبي :

طوى الجزيرة حتى جاءني نبأ فزعت فيه بآمالي إلى الكذب

حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

وروا أن رجلا من بغداد كان كلما دخل بلدا ، وسمع فيه ذكر المتنبي

يرحل عنه ، حتى وصل إلى أقصى بلاد الترك ، فسأل عن أبي الطيب فلم يعرفوه ،

فأقام هناك : ولما كان يوم الجمعة ذهب إلى الصلاة بالجامع ، فإذا الخطيب ينشد

بعد ما ذكر أسماء الله الحسنى -- قول أبي الطيب :

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

فعاد إلى دار السلام. (١)

ومهما يكن نصيب هذه القصة من الحق والواقع ، ومهما تختلف الآراء

فيها بين مصدق ومرتاب ، فالذي لا ريب فيه ولا خلاف أنها دليل على شهرة

الرجل ، وتغلغل أشعاره في أدنى الأرض وأقصاها ، فما كان أحد ليفتعل هذه

القصة افتعالا ، ثم يتقبلها الناس منه ، ويتداولوها بينهم بالرواية - إلا وهم

يعلمون عن المتنبي من بعد الصيت ، ويعلمون عن شعره من شيوع التداول -

مايسخ لهم قبولها ، ويغريهم بتسديق نسبة مزايها إليه .

ونسوق الآن أمثلة لما كان من التلميح والإشادة بشعره :

جرى ذكر المتنبي في مجلس المرتضى ، وكان المعري حاضرا ، فهضم

(١) راجع كتاب أبي الطيب المتنبي وأخباره ، ص : ٢٥ - ٣٠ ، والصبح المتنبي على هامش

التيان : ١ : ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٧ .

المرتضى من جانب المتنبي ، فقال المعري : لو لم يكن له من الشعر إلا قوله :
لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت ، وهن منك أو اهل
لكفاه ؛ فغضب المرتضى ، وأمر بإخراجه . وقال : أتدرون ما عني ؟
فقالوا : لا . قال : عني به قول المتنبي :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنني كامل
ويروى أن الفتح بن خافان ذكر ابن الصائغ في قلائد العقيان ، وأساء
إليه ، فبلغ ذلك ابن الصائغ ، فمر يوما على الفتح ، وهو جالس في جماعة ،
فسلم على القوم ، وضرب على كتف الفتح ، وقال : إنها شهادة يافتح . ومضى .
ولم يدرك أحد ماذا يعني بما قال للفتح . لكن الفتح تغير لونه ، فقبل له : ما قال
لك ؟ فقال : إني وصفته كما تعلمون - في قلائد العقيان ، فما بلغت بذلك عشر
مابلغ هو مني بهذه الكلمة ، فإنه أشار بها إلى قول المتنبي :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنني كامل
ويروى أنه كان لاحد الأشراف خاتم ثمين ، فسقط من يده ، فقال ابن
عم له : لم لم تقف على طلبه ؟ فقال : ألسنت من أبناء أمير المؤمنين ؟ أشار
الأول إلى قول المتنبي :

بليت بلى الأطلال ، إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه
وأشار الآخر إلى قول المتنبي أيضا :

كذا الفاطميون ، الندى في أكفهم أعز احباء من خطوط الرواجب (١)
وسأل بعض الشعراء (٢) سيف الدولة : لماذا يفضل الأمير علي ابن
عيدان السقاء (٣) ؟ قال : لحسن شعره . فقال : أيها الأمير ، اختر أي قصيدة

(١) الرواجب : مفاصل أصول الأصابع .

(٢) روى المعبري هذه القصة منسوبة إلى الخالدين : ابن بكر الخالدي ، وأخيه عثمان . راجع

التبيان : ١ : ٤٥٢ .

(٣) يريد المتنبي ، وكان والده معروفا بهذا الاسم .

له ، فأعارضها بأحسن منها . فقال سيف الدولة : عليك بقصيدته التي أولها :
 لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق منى وما بقي
 فلم يرها من مختاراته ، فأمعن النظر ؛ فرأى في أثنائها .
 بلغت بسيف الدولة النور رتبة أثرت بها ما بين غرب ومشرق .
 إذا شاء أن يلهو بلاحية أحرق أراه غبارى ، ثم قال له : الحق .
 فامتنع من معارضتها ، وعلم قصد سيف الدولة (١) .

هذه أمثلة لمقتبسات الكتاب والشعراء من شعر المتنبي ، أردنا بإزجائها
 مجرد الاستشهاد وعرض النماذج ، لا الحصر والاستقصاء . وهي مع قلتها تدل
 على اتساع رواية شعره إلى غاية لا نعرف لها مثيلا ، وتصور لنا كيف كان
 القوم يسيطون به جهرة ، يأخذون منه بغير حساب ، وتشهد بأنهم لم يجدوا
 آخر الأمر بدا من الإذعان لزعامه الرجل ، والاعتراف عملا بأن أقواله في
 الأغراض التي قيلت فيها هي على الإجمال آيات من الأدب الرفيع ، تأخذ من
 الإحسان والسداد بأوفى نصيب ، وتجري في ميادينها مجرى الأمثال المرسلة .
 أو المصطلحات المقررة ، لا غضاضة أن تقتبس على حالها ، أو على أي لون من
 ألوان الاقتباس ؛ لأن محاولة الإتيان بمثلها أو خير منها تكلف لا غناء فيه ،
 ولا طائل تحته . وإلا فما لهم كانوا يتزاحمون على شعره ، ويستقون منه على
 الصورة التي رأينا ، وهم أقطاب الأدب وأشباه أقطابه لهذا العهد ، ومنهم الحاقدون
 عليه ، الجاهدون في هدمه وانتقاص فنه ؟ وإذا كان هذا شأن هؤلاء ، وهم من
 عرفنا ، فكيف الظن بغيرهم ممن يلوونهم في المكانة والمواهب ؟

أما بعد ، فلم يبلغ شعر المتنبي هذه المرتبة من الرواج وكثرة الدوران على
 الألسنة عنوة ، وإنما بلغها عن جدارة وكفاية . وما نريد هنا أن نستوفي القول
 في استقرار مزاياه وتفصيل خصائصه ، فذلك مجال عريض ، لا يتسع له المقام

ولا يقتضيه . وحسبنا أن نشير إشارة بجملة إلى بعض ما اختص به هذا التراث الكريم ، الذي خلقه شاعر العربية الأ كبر .

وأول ما يستوقف النظر من أمر هذا الشعر ، أنه في صياغته وأسلوبه لا يجري على سنن واحد ، ولا يلتزم هندسة معينة ، أو جرسا خاصا لا يعدوه ، فإذا هو وحدات متوافقة أو متماثلة ، لا يكاد يبدو بينها خلاف كبير في الديباجة والتأليف ؛ ذلك لأن الرجل كان واثقا أعظم الثقة بنفسه ، متمكنا أشد التمكن من لغته . ولم يكن في طريقته تابعا مقلدا ، ولكن إماما مجددا ، يؤثر المعنى على العبارة ، ويختصه بعنايته كلها فلم تكن به حاجة إلى مصانعة النقاد ، أو تملق الذوق العام ؛ لذلك كان يطلق نفسه على سجيته ، تهيم حيث تشاء ، وتقع أنى تريد ، وتخلق حيث يطيب لها التحليق ، لا يسيطر عليها مسيطر ، ولا يوجهها موجه ، إلا ما تكون فيه من شأن ، أو يحيط بها من أسباب التفتح والإقبال ، أو التقبض والإعراض ، فتعلو وتسف ، وتسهل وتجبل ، وتنشط وتفتقر . تدخل روضا ، أو تنزل قفرا ، وتجيء بدرة أو تجيء بصدقة . وكلما وقع له شيء تقبله ، ولم يحاول التغيير منه أو التحوير فيه ، ولكن يسرع إليه ، فيكسوه بما حوله على حسب ما يتهيأ له ، غير جاهد في التفصيل ، ولا ملتزم فيه نمطا خاصا ، ثم يعرضه كما وقع له ، في صدق وأمانة وصراحة : منه اللين الرقيق ، والجافي الغليظ ، ومنه الجارى على السليقة والطبع ، والآخذ من الصناعة والزخرف ، ومنه السمع المشرق الديباجة ، والعابس الجهم المقطب الجبين ، ومنه الأليف الطبع ، والشاذ المتمرد على القياس والإلف .

ثم إن تو قد خاطره وازدهار الفلسفة والعلم لعده ، وشغفه بالقراءة والدرس ووفرة مادته من اللغة — كل أولئك قد أتاح له العبارة في نظم الحكمة وضرب المثل ، على نحو لم يسبقه إليه سابق ، ولم يلحقه فيه لاحق . كانت حكيمته وأمثاله تمزج الفلسفة النظرية بالتجربة العملية ، المنزعة من الحياة الواقعة ، أو بعبارة

أخرى كانت تجمع بين حكمة الحكماء ، وتجربة المجربين وكان أكثر الأحيان يرسلها في شطر بيت ، أو في بيت تام ، كأنها الحقيقة المقررة ، أو القانون الثابت لا خلاف عليه ، ولا شك فيه . وربما آنس منها بعض الخفاء أو اللبس ، أو بداله أن المقام يقتضى شيئاً من التوسع والبسط ؛ فيتناولها إيضاحاً وتبييناً ، أو يعود إليها بالتقسيم والتفريع : يسوق إليها المثل المحسنة ، أو التشبيهات الضمنية البديعة ، أو الأقيسة الصادقة المطردة ، فإذا هي في بيت واحد كذلك ، أو بيتين اثنين ، أو عدة أبيات ، ولكنها على كل حال كانت تكون موجزة لا فضول فيها ولا حشو ، خفيفة سائغة ، كأنها الأمثال السائرة ، أو الآيات المنزلة ؛ لذلك خف موقعها على القلب ، ولطف مدخلها إلى النفس ، ولا تزيد على التكرار والمعاودة إلا حلاوة وظرفاً .

وهكذا يخلف لنا أبو الطيب من فنه وحكمته معرضاً فخماً ، رائع المشاهد ، متعدد الجوانب ، خالداً متجدداً ، لا ينفذ موسم ، ولا تبلى جدته ، ما بقي للعربية ذكر في هذه الحياة . بل إنه ليقم لنا من هذا الفن وتلك الحكمة مآدب مكللة حافلة ، يجد فيها كل امرئ ما يلائم ذوقه ، ويتفق مع مزاجه ، فالأديب واللغوي ، وعالم النحو والبلاغة ، والفيلسوف ، والمربي ، والأخلاقى ، وغيرهم ، يجدون جميعاً عنده الكفاية بما يشتهون ، وإن شئت فقل : إن أبا الطيب إنما خلق لنا من فنه وحكمته دنيا عريضة ، تجمع كثيراً مما في دنيا الناس : من حق وضلال ، وخطأ وصواب ، ودمامة وجمال ، ونجاح وإخفاق ، وهى مع ذلك زاخرة بالحياة ، فياضة بالقوة فى كل لون من ألوانها ، وكل منحى من مناحيها ، فتهايات الأسباب لا صطناع شعره فى شتى المواقف والمناسبات ، حتى شعره المعيب لم يعدم مواقف يزجى إليها ، ومناسبات يستشهد به فيها .

هذا بيته المشهور :

علَّ الأمير يرى ذلى ؛ فيشفع لى عند التى صيرتنى فى الهوى مثلاً

قد عابه النقاد عليه . ورموه من أجله بفساد الذوق وقلّة البصر بأدب المدح ، ومع ذلك أتيح له من غراميات جوته ، شاعر الألمان حادث ينطبق عليه ، ويحقق معناه ، فإذا له نصيب من الحياة والذكر يعادل نصيبه من تداول الوقوع . قال الأستاذ العقاد : . . . لقد خطب الرجل (يعني جوته) ، وهو في الرابعة والسبعين فتاة في التاسعة عشرة ، فلما أعرضت عنه تشفع إليها وإلى أمها بأميره ، الذي حقق فيه قول أبي الطيب : عل الأمير (١) ، البيت . وهذه ألياته المعقدة وضعيفة التأليف ، تلقى من النباهة وشيوع الاستعمال في تعريف الفصاحة والتمثيل للكلام غير الفصيح مثل ما يلقى شعره الآخر من ذلك في المواضع التي تقتضى اصطناعه والتمثيل به .

ولست أدري ماذا كان يصنع حضرات السادة مدرسي اللغة العربية والمؤلفين في قواعدها ، لو لم يسعفهم أبو الطيب بهذه الذخيرة الضخمة ، الجامعة لما يحتاجون إليه في دروس البلاغة والنحو ودروس الإنشاء وغيرها ؟ أ كبر الظن أنهم كانوا مضطرين إذ ذاك أن يبذلوا جهدا كبيرا في البحث والتقصي هنا وهناك في شتى المصادر ، لعلمهم يجدون ما يريدون .

ولعل خير ما نختم به هذا البحث كلمتان بارعتان ، لفقيد اللغة والأدب ، الأستاذ المرحوم أحمد الإسكندري ، إحداهما تلخص فضل شعر المتنبي على الثقافة والأدب في العصر الحاضر ، والآخرى تحدد مكانة شعره بين سائر الأشعار .

قال (رحمه الله) في مذكرة أدب اللغة في العصر العباسي : « وللمتنبي من الحكمة والأمثال ما يربو على كل شاعر تقدمه . وقد أصبح للغة العربية من كلامه ثروة لم تكن لها لولاه . وما من كاتب ، أو خطيب ، أو متكلم ، أو

(١) تذكّار جيتي ، ص : ٢٩ ، ٣٠ .

مناظر، أو مدرس، إلا وله من حكم المتنبي مدد أيما مدد « (١) .
وقال في إحدى محاضراته المدرسية: « لو كان للشعر قرآن لكان شعر
المتنبي قرآن الشعر ». رحم الله شاعرنا وأستاذنا، وأثابهما بما أسديا إلى الأدب
واللغة والثقافة من صنيع .

على النجدي تاصف
مفتش المعارف بالإسكندرية